النظام الخاص لأهل الإختصاص

للقطب الكبير

سيدى أحمد الرفاعى

حققه وقدم له

محمد محمد عامر





مقـدمة المحقق

الحمد لله الـذى خلق الخلق فأبدعه، واستـخلف الإنسان فى الأرض فكرمه ونعمه، وفضله على سـائر الخلق بالعقل، فجعله مناط تكليفه، وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين بأحكام الله، فقرب الله إليه الإنسان بالعبـادة، وجعل له على الأرض بالعقل السيادة . . .

وأصلى وأسلم على خـير خلقـه، من بعث رحمة لـلعالمين، وإماما للمتقين، وشفيعا للمؤمنين، فبلغ الرسالة لأهل الأرض، فـاسـتناروا بهـديه، وتمسكوا بما أنزل له الله عليـه من وحـيـه، فصارت أمته ـ بما تمسكوا به من كـتاب وسنة ـ خير أمة أخرجت للناس .

وبعد . . .

يعتبر التـصوف الإسلامى من الطرق الموصلة إلى الله تعالى، ويمثل ذلك قـول الجنيـد البغـدادى سـيد الطائفـة «الطرق كلهـا مسـدودة على الخلق إلا من أقـتفى أثر الرسـول ﷺ»، وقال أيضا محددا وموضحـا طريق التصوف الصحيح . «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحـديث، لا يقتدى بـه فى الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة» . .

ونريد أن توضح أن مفهوم الطريقـة فى البداية كان يتمثل فى معنى روحى بسـيط يتمـثل فى هذا المنهج المتدرج لحياة باطنة، تعتمد المهمة الروحيـة وللحصول على التحرر النفسى، ثم بدأت

بمرور الوقت مجموعات المريدين تتحلق حول شيخ مشهود له من رجال الطرق، بقصد إستكمال الرياضة والتربية على يدية، من خلال مصاحبته والأخذ عنه، وبإرتباط به محدود عن طريق رابطة إنتساب، أو النطق بعهد أو بيعة ملزمة.

ونحن الأن بصدد كتاب السيد أحمد الرفاعى رضي الله عنه، ويحتوى هذا الكتاب على نصائح غالية فى الطريق إلى الله تعالى، ويتحدث أيضا عن الحكمة فى ظل القرآن والسنة ويوضح بعد ذلك المنهاج الأخلاقى الذى يجب أن يتخلق به أهل الطريق إلى الله، وبعد ذلك يدور حول التصوف وخصال الصوفية، وقد أشار السيد أحمد الرفاعى من خلال تسميته كتاب النظام الخاص لأهل الاختصاص، فهو رحمه الله، يقصد النظام الذى يجب أن يتبعه الصوفية وهو يمثل نظامهم الخاص، ويقصد بأهل الإختصاص أهل الطريق إلى الله تعالى وعلى رأسهم الصوفية.

والكتاب يحتوى على علم حلو بين دفتيه، علم مستقى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، علم فيه الذوق والتجربة، وعلم المشاهدة والمكاشفة.

نسأل الله أن ينفع به كل سائر فى الطريق إلى الله، وأن يكون زاداً له فى طريقه، وأن يوصلنا جميعا إلى الحق والهدى والرشاد.

العبد الفقير إلى ربه

محمد محمد عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

النظام الخاص لأهل الإختصاص

• الحمد لله تمجيداً لذاته المستحقة الحمد، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الكريم محمد، صاحب لواء الحمد، وعلى اله وأصحابه الثابتين على العهد، والموفين بالوعد.

أما بعد: أى سادة ! ذرات الحادثات محكومة لسلطان الخالقية، ومنها العالم الإنسانى، فهو مرؤوس مقدور لذلك السلطان الربانى، وهو فى قبضته، وكل فرد منه مملوك لبارئه، عبدٌ له سبحانه وتعالى، حر بالنسبة إلى غير البارى تعالت قدرته، والناس فى مرتبة المملوكية ومنزلة العَبْدية له سبحانه سواءٌ.

• فكلما صحت نسبة العبد إلى سيده - جلَّتْ عظمته - إرتفع فى مقام عبديته عن إخوانه فى نوعه وعلا عليهم، حتى إذا صار له من السلطان الإلهى معنى ترأس به، لا بنفسه على غيره، وسعة أمر رياسته هى بنسبة المعنى الحاصل له من قُدُس بارئه جلّ وعلا، هؤلاء المرسلون فى النبين أعلا منهم رتبة، وأوسع رياسة، هؤلاء أولو العزم فى المرسلين، أرفع مقاماً، وأعم أمراً.

هذا سيد أولى العزم نبينا البر الرحيم صلّى الله عليه وعليهم أجمعين، فهو فى أولى العزم أعظم مكانة، وأشمل دعوة،

وأوسع دائرة، وأتم حكمـــا، وأبلغ حـجـة، وأمنع سـلطاناً، لما حصل له من جليل المعنى القدسى فوق غيره من إخوانه النبين والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

● وعلى هذا، فالأمر النافذ القائم المحكَّم فى عوالم الإنسان، هو الأمر الإلهى، والقائمون به بالتقليد الربانى: الأنبياء والمرسلون، وعنهم العلماء بالله حكماء الدين، الذين هم ورثة الأنبياء[1]، وزمامه بيد نائب النبوة فى كل عهد وزمن، به يصول ويجول، ويفعل ويقول، وتخضع له الفحول، وله الرياسة العامة فى مقام النيابة المحضة الجامعة، وبعد فالقوم أرباب البصائر، المندرجون فى زيل العلم بحال النبوة، وسر الخلق، وحكم الخالقية، فلهم - كل بنسبة حصته - رياسةٌ على من دونه من إخوانه، يعلمهم، يزكيهم، برفق بهم لتعليمهم، يَغْلُظ عليهم لتأديبهم، يسوقهم إلى بساط العلم وحضرة الفهم، لينقذهم من وهدة الجهل، من أسرار الإنحطاط عن هذا السر، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، من ظلمات سفل الطبع، ودناءة الهمة، وقصر النظر، وسقم الغاية، إلى نور شرف الطبع، وعلو الهمة، وصحة النظر، وجليل الغاية، فيقوّم إعوجاجهم، ويصلح إحديدابهم، وتَذهب طمسةُ فشلهم، وتنطمس ثورة ذليتهم، ﴿لله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه، قال:
قال رسول الله ﷺ: « إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثّوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ ووافر».
(رواه: أبوا داود، والترمزى، وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه).

التفاضل بين البشر بمعرفة الله

● لا تزعم - أى أخا الحجاب - أن أخاك الإنسان الآخر عبدك بدريهماتك، بوقتك، بحظك، بشأنك، بما أنت فيه من أمرك، هو فوق ذلك، وأنت دون ذلك!

كل من سواك بتركيب الهيكل، أو مثالك بالصورة والنسق، فهو أخاك بجنسيتك، شريكك بآدميتك، لا هو مملوك، ولا أنت مالكه، وكل من خالفك بتركيبك، فهو ملحق بجنسه حَقُرَ أو عظم، وأنت ملحق بجنسك، فاعرف حدك، ولا تبق وحدك، حاجتك ملزمة لك، وحاكمة عليك بالإنضمام إلى أبناء جنسك، والإستئناس بهم، وقاضية على طبعك بالأدب مع صنوف أجناس الأشياء، من ذوات أرواح وجمادات بارزات ومطويات، علويات وسفليات،

● فاجمع رأيك على العلم بالله، لتعلوا فى مرتبة آدميتك بين جنسك، ولتزكو فى نفسك، ولا تكن قليل العبرة، خامل الهمة، قليل النظر، أنظر حكم ربك، سر بروحك، سير همتك فى ملكه سبحانه، اعتبر بمصنوعاته، قال تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾[1] .

(١) سورة الحشر الآية ٢

نصائح غالية فى الطريق إلى الله

إستَرَقَّ أمره أقواماً، هم لولا أن إسترقهم أمره أحرار، خالفوهم فأوقعوهم فى وهدة الرق، إستعبدهم عصيانهم، أذلهم طغيانهم، فخذ بهمتك العلية طريق الاستسلام له محجة وسر إليه أمينا من غيره، لا تقل: قَدرهُ أوقفنى عن السير إليه ! هذا من بطالتك من كسل عزمك، وفتور عزيمتك! إجعل القضاء والقدر صفاً، وإبعث معهما: رأيك، وحزمك، وإملك بربك وإعتمادك، وأقم بين الصفين حرب العمل، وكن أنت فى صف العقل والتدبير، المؤيد بحسن الظن بالله، وبصدق الإعتماد عليه سبحانه، فإن إنكشف غبار ذلك الجرب عن غلبة لك فى أمرك، فقد أثمر غصن أملكَ بربك، وحسن ظنك به، وصدق إعتمادك عليه، ففزت بمطلوبك، وإن إنكشف الغبار عن مغلوبية لك فى شأنك، فقد إنكشف لك غطاء القدر، وأنت حينئذ معذور، وسعيك مشكور، وعملك عند الله تعالى وخاصة عباده مبرور.

العقــل هبــة من الله

● الله، الله، بِكَ، أوصيك بك أيها العاقل! فإنك خزانة من خزائن الرحمن، عظيم عند من صوَّرك إن عظَّمت ذاتك وعرفت شرفها، قد إمتازك ربك بالعقل، ورفع به درجتك على من هو دونك، وأعطاك لساناً يقذف در الحكمة إلى سامعيه، فيختلب بها قلوبهم، ويشْغل ألبابهم، ويعقد هممهم، ويوقفهم عند حدودهم ويجمعهم إلى صعيد القصد، فلا تستصغر شرف الكلام، وتهمل مرتبته التى هى أعلى المراتب المتدلية من على، تدلياً إلى العالم الأدنى.

الكلام وأثره فى الطريق إلى الله

هـــذه: «أ. ب. ت. ث. ج. ح. خ. د. ذ. ر. ز. س. ش. ص. ض. ط. ظ. ع. غ. ف. ق. ك. ل. م. ن. هـ. و. لا. ى».

هى حروف التهـجى، ورابطة نظم الكلام، وكتاب الله المنزل على آدم عليه السلام، والكلام سيف الله الذى يجمع به ويفرِّق، ويبغِّـض به ويحبب، ويفـعل به العجـائب، تصلح به القلوب، ترتبط به الأسرار، تلين بسببه الخواطر، تحصل به الزلفة والمودة، تُشَقُّ به العصـا، تنحدر من موجتـه سيول الفتن، تنطلق بسَيَّال محدورة غوائث غُثاء المحَنْ، تنشط بهـمة أساليبه الهمم، ترتفع بنهضته العزائم إلى حضـرة القرب، تنحدر بجاذبيته المواهب إلى حظيرة القلب، ووراءه السيف المصلت إذ هو مـخبأ فى طيه يُلْقى هو أولاً، ويقـوم له السيف ثانـيا، فـهو من آلاته، من مـواده، يعمل له ليرجع النظم إليه.

● كلمة يقولها القائل، وهو كافر زنديق، فيقف بها فى صف المؤمنين الموقنين، وكلمة يقولها القائل، وهو مؤمن وثيق، فيقف بها فى صف الكافرين الجاحدين.

● ببيـعتك أيهـا اللبيب على اسم ربك، بعـهدك على طريق

نبيك، تتـصدر فى محاضـر القدس، هى كلمة قلتهـا، ووقفت عندها، فدخلت فى القوم الذين ألزمهم: ﴿ **كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا** ﴾[1]

الكلام الذى ينطق به لسانك، ويأتى بمركبه فمك، آية قلبك، خزانة سـرك، مجمـوع شرائف عينـيتك، مواد صـفاتك، نظم كليات ذاتك، أفرغت كليتك فيـه، بعد أن خرج من فيك كُتب عنك، بـل كـتب على الرقـاع، نقـل عنك، بل نقـلك إلى الأسمـاع، أطافك فى الأفواه والصـحاف، أقامـك فى المجالس والدواوين، أثبـتك فى القلوب والعـيون، كن شـريف الكلمـة شـريف الهمـة، أخـا الحكمة، لا تمط نقـاب الحكمـة بالوهم، وتعمل كالفيلسوف الذى جرد الحكمة عن شرفها، إِذ كسا باسم الفلسفة غير كسوتها !

(١) سورة الفتح الآية ٢٦.

الحكمة فى ظل القرآن والسنة

أجل، كن حكيما وانطق بالحكمة، وإياك والتفلسف، فإن منه طُرُقَ وهمٍ تدفع إلى غير سبيل الصواب، لتوسع لطائف الخيال، فى مجالات التنفيذ والتطرق، بما لا يقف به العقل، طلباً لزبدة المطلب، والقصد على ما هو عليه حسن، ولكن جَرد كلام الفيلسوف للسامع من كلمة الحق باطل نفس المتكلم، قصد بالمجرد عن الحكمة، وجرد كلام من ظن به الخير من كلمة الباطل حق حسن الظن، فربطه حسن الظن بهذرته، فياليت الفيلسوف طمس باطل نفسه، ولزم الحكمة فقام لها، وقال بها، ونفع الناس، وليت من ظن به الخير، محق باطله فأخذ بحبل الحكمة، وغسل صحيفة سره من زوره وبهتانه، وتمسك بأذيال الحكماء، فانتفع بهم، ونفع بعلمهم الناس، ومن العجائب فقد يفجر الرجل بنفسه ويصون سر الحكمة ! فيؤيد الله به أمره، ويُعزُ به جنده، فقال رسول الله ﷺ - فى غزوة خيبر - « قم يا بلال فأذن، أن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ».[1]

ماذا يفعل العاقل بِحِلْسِ البيت، من القوم الذين انتفخت أوداجهم بالدعوى، ولا أثر لهم فى الدين؟

(١) الشطر الأول من الحديث «البيهقى» والشطر الثانى: «البخارى، ومسلم»

قال جابر رضي الله عنه: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خير أهل الأرض»[1] وكنا ألفاً وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة، يريد بالشجرة التى بايعهم رسول الله ﷺ تحتها، المعنية بقول الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾[2].

فانظر أيها الأخ اللبيب! كيف صحت الخيرية، لألفٍ وأربعمائة رجل إذ ذاك، دون أهل الأرض شرقها وغربها؟ هل كان ذلك إلا لأنهم تجردوا بأنفسهم وأموالهم لإعلاء كلمة الله تعالى، وإعزاز دينه؟ وعلى ذلك بايعوا رسول الله ﷺ وعليهم أجمعين.

● وهل الدين إلا كلمة صادقة وهمة عالية؟ تسقط همة الرجل الماجد الكريم على كل شريفة، وتسقط همة الخب الدنئ على كل ساقطة، ورَبُّ الشبهة يتطرق الشبهة، والخير لا يظن إلا خيرا، ولا تثبُ به همته إلا إلى المعالى[3]، وعلو الهمة من الإيمان، والساقط الوضيع يريد الترفع بهمته، فتغلبه نفسه، فترفع بنزغها، وتتداعى همته ساقطة بطبعها، ويرى لخباله بمرآة خياله أن ترفع نفسه بنزعها عن الهمة! ثكلته أمه! ما فرّق بين

(١) رواه البيهقى فى دلائل النبوة، وسنده صحيح.

(٢) سورة الفتح: الآية ١٨

(٣) ولقد أوضح رسول الله ﷺ: «أن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفاسفها» (رواه البيهقى ورجاله ثقات).

الوقاحة والرجاحة؟ هل تستوى الظلمات والنور؟

همة العارف بربه، الحكيم بنوره، أرفع من العرش، هات - أى أسير الدعوى - طوْر همتك، وقسه على أطوار أهل الهمم، وأحكم إن كنت من المؤمنين، إن كنت من الصادقين.

إسحق برحى الحكمة دقيق شعير مُخيلتك، لينسف عنك دقيقاً تسفوه الرياح، وإذن فاستنطق لطبعك بُراً نقيا من زرع الحكماء، أعيان السلف، ورَّاث نبىِّ الهدى ﷺ.

قال عليه أفضل الصلاة وأشرف السلام: «يأتى على الناس زمان يغزوا فئام من الناس، فيقال: هل فيكم من صحب النبى ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتى زمان فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبى ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتى زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبى ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح»[(١)]

● هذا التحكم سر الوراثة المحمدية، وسنته ﷺ قائمة، وحكمته دائمة، فلا تكن أيها الأخ الصالح محروماً من غنيمة سنته، ممنوعا بهمك وبهمتك عن مائدة حكمته، فأنت إن أحييت سُنَّة من سننه، أو بثثت حكمة من حكمه، فالفوز لك والبشرى المستمرة، لأنك صرت من حزبه، ودخلت فى عداد خير أهل

(١) رواه البخارى، ومسلم، والترمزى، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، مرفوعاً، (جامع الأصول: ٨/ ٥٥١

الأرض خاصة، وكنت معه غداً، وهو يقول من حديث: «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[(١)]. رابط فى سبيل الله بمالك، بنفسك، بعلمك، بحكمتك، بهمتك.

● الشريف من بنى فاطمة - عليها السلام - قيَّده الشرع لإعلان علو الهمة له عن أقل الصدقة. قال النبى ﷺ لأحد سبطيه الكريمين: «أما علمت أن آل محمداً لا يأكلون صدقة؟»[(٢)].

(١) رواه البخارى، ومسلم والترمزى، عن سهل ابن سعيد رضي الله عنه مرفوعاً.
(٢) رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، مرفوعاً.

صفات أهل الطريق إلى الله

وأهل الحضرة الإلهية يعملون بعمل آل محمد، ويحثون على العمل بعلمهم، ترتفع هممهم عن البطالة والكسل، ترفعهم النخوة والغرة الفعالة والمروءة المحمدية إلى شق غبار الأكوان، وخوض معامع الوجودات، كل ذلك لله ولرسوله ولإعلاء كلمة الله فى ملك الله، بحكم قاهرة، وهمم زاهرة، جمعت بين أمرى الدنيا والآخرة.

وكذلك الموفقون والمقربون والمحبون، وأولئك هم المفلحون، بل أولياء الله المقبولون: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[1].

● أخذ الله العهد على روح أحيمد العبد اللاش أن لا تقف عند سفاسف الأمور، إلا من علت فى الله همته، علت عند الله مرتبته، ومن وقف مع غرضه، ما عوفى من مرضه ومن لم يصرع صنوف الحادثات بكفِّ الطرف عنها إرتياحاً لموجدها وإبساطاً به فهو عن حلاوة الإيمان وعن مزاق شراب الهمة بمعزل.

ولا يخطفنك حتى لك على علو الهمة: أن تهمل العلم بحال الضعاف والفقراء، وحرفهم وصنائعهم، وما هم عليه من

(١) سورة يونس: الآية ٦٢.

عاداتهم وأمور معاشهم، فإن العلم بذلك والعمل به، والتحقق بكله، والوقوف على سره والترقى فيه أى ما لا غاية له، إلا الشرعُ: إنما هو من علو الهمة، ومن بوارق أسرار النبوة.

هؤلاء الأنبياء العظام - عليهم الصلاة والسلام - كلهم رعَوُا الغنم، ومنهم نبينا سيد العرب والعجم[1]، لتطرق طرائف الأمم، والعلم بأحوال طوائفهم، وللإقتدار على سياسة عوالمهم، وللتدريب بالرفق ومسالكه، حتى بشأن الحيوانات الغير ناطقة، بل وللتسلق إلى نسخ خدر الهمة، بالرفق العام فى حق كل بارز وطامس عينى وغيبى، ليكون ذلك السند: رحمة عامة على خلق الله، وبحراً فياضاً عزباً هنيئاً مريئاً يسح على ملك الله، وهذا طريق الوراث، الذين أثابهم الله الفتح، وأوصلهم بحبال الرسل، وجعلهم نواب عنهم، وجمع عليهم أمرهم، وحققهم بالتخلق بأخلاق درة قلادة المرسلين، وأكرمِهم على رب العالمين، سيدنا «محمد» النبى الآمين، عليه وعليهم صلوات الملك البر المعين.

وهناك يقدر على إيضاح ما يلزم للخلق فى أمر معادهم ومعاشهم، ويكون كالغيث، أين وقع نفع، والله ولى المتقين،

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بعث الله نبياً إلا راعى غنم، قالوا: وأنت يارسول الله!؟ قال: وأنا كنت أرعاها لأهلى بمكة بالقواريط»، (رواه البخارى، كما فى دلائل النبوة للأصبهانى: ١/ ٢٢٣). وأخرجه مالك فى الموطأ ولم يذكر «القراريط» (جامع الأصول: ٤/ ٦٧٩ - ٦٨٠).

وإليـه يرجع الأمـر، ومنه العون والـنصر، وحـسـبنا الله ونعم الوكيل.

● شـرف العقل بالإنصـاف، وإلا فهـو مغلوب لما تبـرزه له النفس من غـرارة الهوى، وشـرف الفهم بالإذعـان، وإلا فهـو مـحكوم لطارق الرأى، والدامغ لبـاطل الحـرص، والأمل حـد الحق، ومن أخذه باطله فتجاوز به حد الحق فهو غدَّار! وأمُّ هذه الآمال الكاذبة: سـبحة خاطر، تجـرد الفكر إلى إستحـضار لذة تطيب لها النفس، وتفـرح بها الشهـوة، وتقف عندها العزيمة! فهناك يقود الفكر العزم فيخوض معامع الأغراض!

لو طرق طارق باب الـسـمـاء ـ ولم تكن له أيـة علم إلهى، تجمع به قوماً على الله فتنفعهم فى دينهم ودنياهم ـ فليس بشئ.

ومن لم يغر على المحبـوب فلا يرضى أن يسلك ذمُّه فى أذنه فليس بمحب، ولا الصـديق إذا لم يغـر على صـديقه حـتى لا يرضى أن يسلك ذمُّه فى أذنه فليس بصديق!

والنخـوة سلّم العبـد إلى سدرة منتى المجـد وفيهـا من ثورة الغيرة لله أُسٌّ كريم، والاستقـامة وصف لايشتمل عليه إلا رداء كل عظيم، والعـارف المحض يستـقل الدنيا، فـلا يراها إلا دون شراك نعله، ويستعظم الأشـياء لموجدها فلا يرى إهمال شئ رداً بذلك الشئ إلى أصله.

هات، إجـمع بأحكيم بين هاتين، وأنـت إذا الرجل العظيم، شُفْ بباصرة علمك سيرة نبيك الآمين وآله الطاهرين، وأصحابه الهداة المرضيين، فتحوا البلاد، وصـانوا العباد، ومهَّدوا السُّبُل، وأفاضوا العـدل، ونظَّموا الأمور وأحكموا حكم سـياسة الأمم، وهم أزهد بالدنيا وأعراضها، وأبعدهم عنها وعن أغراضها.

سِرْ بين الحائطين: حائط العمل، وحائط التسليم، وروح إلى عالم جمـعك بفرقك، ولا تجمع بين حدثـك وقِدَم ربك، فإنك إن فعلت ذلك انخرطت فى الضـالين! أجمع بفرقك بين علمك وأمره، بين عملك ورضاه، بين طلبك وكرمه، وأنت حينئذ من الصالحين لا تنم على حلس حالك، غير مـترفع إلى حال فوقه، فإن من تساوى يوماه فهو مغبون!

ما أطيب السير فى الله إلى الله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

كن فى موعظتك حكيـما: ﴿ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾[1]، واعمل بعلمك إذ كفـاك للعمل، ولا تقف فى العلم عند غاية، فإن غايته فوق عمرك، أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[2].

إرفع نظرك إلى المعالى بدينك، إلى المعالى بنبيك، إلى المعالى بربك، لا تضع عزيز نظرك على تراب الضعـة فتربُضَ على كل

(١) سورة النساء: الآية١٠٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٧.

قتب، تلك سمة الباطلين، وتدرَّع بدرك علم الصحابة، وانتسق بنسق حال الآل الكرام، عليهم جميعاً الرضوان والسلام.

وهناك لا يطغيك حال، ولايزيغك شأن، وصُفَّ نفسك - وإن بَعُد المدى عليك - بصفهم يدخلك فيهم تحقق بأحوالهم، ويحققك بهم تخلقك بأخلاقهم: «من غشنا فليس منا»[1].

وعلى هذا، فمن لم يغشنا فهو منا، قرب المدى أو بعد، هذا فى الأمرين، وعلى الحالين.

(١) رواه مسلم، عن أبى هريرة رضي الله عنه، مرفوعا.

الدعوة إلى التمسك بالسنة

● شارقة فجر النور المحمدى طالعة لا تغيب أبداً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، فمن كلف نفسه خدمة ذلك الجانب بإحياء سنته وإعلاء أمره فقد فاز وله أجر مائة شهيد، يؤيد ما أقول قوله عليه الصلاة والسلام: «من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد»[1].

قيل لرسول الله: يا رسول الله !أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله» قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره»[2].

● أفهمت أيها الأخ الصالح! وأدركت أن نبيك سر سرارة الأزل، ونور باصرة إلى الأبد ﷺ، فرَّق الناس، فقسمهم إلى ثلاثة أقسام:

رجل نافع يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله، ورجل يتقى الله ويعتزل الناس لكى لا يضرهم، ورجل لم يكن أحد الرجلين، فهو - حمانا الله وإياك - مضر، وهو هالك! هذا ما تضمنه كلام صاحب جوامع الكلم، وأفضل الثلاثة: المجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله.

(١) رواه البيهقى، عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه الدارمى فى مسنده، والطبرانى عن أبى هريرة رضي الله عنه، إلا أنه قال: «... فله أجر شهيد». (الترغيب والترهيب: ١/ ٨٠).

(٢) رواه البخارى، ومسلم.

● تهادت عيس همم الموفقين إلى طلب الحق بالجهاد في سبيل الله، وإن ذلك لعلى طرق وأقسام: منه جهاد باللسان، ومنه جهاد باليد، ومنه جهاد بالمال، ومنه جهاد بالعزم، ومنه جهاد بالعزيمة، وكلها تؤول إلى الله، يشملها قوله تعالى: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[٣]، وأشرفهم الجامعون. وإن نظر السلطة ليحكم على الطابع من طرق شتى: حق، وباطل، ووهم، وغير ذلك، فلا تكن بعلمك أسير قيد نظر السلطة، متى حضر عملت، ومتى غاب بطلت! تلك شائبة الرياء، شائبة الأمل، شائبة الخوف، إطرحها عنك بعزمك، واخلعها متجردا إلى ربك.

ما أدنى همة من قيد النظر بعمله، وأفلتته عيبته عن العمل؟ أى شنشنة فى الهمة الرفيعة؟ وأى نغمة لها فى أذان الحادثات، ومدارج ترقى السر فى عوالم الغيب والحضور ترتفع بنسبة ما يفاض لها من نور العقل؟ والتوفيق بيد الله تعالى.

حيرة أهل البصائر بما وراء الستائر

حار أهل الأبصار والبصائر بما وراء هذه الستائر، والحيرة عجز حاكم على كل ذى عقل بالإيمان المحض والوقوف على جادة السلامة: ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾[١] وهذا كتابه تعالى الحجة القائمة، والمعجزة الدائمة وفيه جميع الحكم، خفيها وجليها، كليها وجزئيها، فعرفها العرف فرأى من آيات ربه الكبرى، ولهذا السر الأعظم قال النبى ﷺ : «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»[٢].

آيات بينات، وكلمات جامعات، واسرار إلهيات، وعلوم ربانيات، طويت فى منشور هذا الكتاب القويم، والكلام القديم: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾[١] هنالك جنود الله الجوالة، بحور الله السيالة، سحائب الله الهطّالة، سيوف الله الفعالة.

﴿ **الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[٢].

(١) سورة النساء الآية ١٠٥.
(٢) رواه البخارى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه مرفوعا، بلفظ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». (٣) سورة الزمر: الآية ٢١. (٤) سورة البقرة الآية ١ ـ ٥.

نماذج يجب أن تؤخذ من القرآن الكريم

خذ نموذج القدرة، وحال العلم، وشأن الحكم، وسلطان الأمر، من هذا الكتاب الكريم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يثقل على من قيده طبعه، وغلبه هواه، وقهرته نفسه، فأوهمته أنه فوق جنسه! إياك ونزغ الشيطان فإنه يسول لك، ويوهمك أنك فوق غيرك! إتق الله بالآدميين، قال ربك سبحانه لأشرافهم وأعظمهم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ـ وضرب له خدر الفوقية بسلطان ـ : ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[1].

الوحى ختم، وبعده إنقطع، والمثلية فى كلنا قائمة باقية معنا، لا تختم ولا تنقطع ما دام الآدميون.

● ها هو ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[2] خذ حصةالأدب، وسهم العبرة من تركيبك، ركبك من أجزاء نوعك الكثيرة المقطعة المركبة، فأقامك: كما أنت، فصن أجزائك من خبث إختيارك، لا تعط أذنك طريق السير إلى سماع الكذب والزور وفحش الكلام. ولا تبعث عينيك إلى النظر بما لا يحل، ولا تجعلها تستحسن الفانيات، فتسوق طبعك إلى حسد هذا، واستعظام هذا، واستكثار هذا، ولا تسيِّر رجلك فيما لا يرضى

(١)سورة الكهف: الآية ١١٠.
(٢) سورة الإنفطار: الآية ٨.

ربك، ولا تنطق لسانك إلا بخير، ولا تمد يدك إلا إلى خالقك فيما يؤول إلى مراضيه، وصُنْ بطنك وظهرك وما سترت عن كل ما يوقعك فى وهدة السؤال والخزى، واشكر الله على السراء والضراء، واذكره فى الشدة والرخاء، وكن معه فى الصحة والمرض، فى بابه فى السقم والعافية، ولا يدفعنك المرض والسقم عن الربوض ببابه سبحانه، فإن النبى ﷺ يقول: (مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا إعتدلت تكفَّأ بالبلاء، والفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء)[1].

فابهج بالوصف الدال على إيمانك، وافرح بربك وبما يجئ منه، إيماناً به، وركوناً إليه، وارض عنه فى كل أحوالك، فإن العاقل غالب رضاه على سخطه فى كل الأمور، والأحمق غالب سخطه على رضاه فى كل الأمور! وكذلك فالرفيق المتعتب المتسخط لا يُرافق، والرفيق الراضى الحمول لا يرافَق.

● والنفس يطيب لها حال يأخذ بها إلى الهدأة وجمع الحال، وحضور الهمة كيف كانت، ويصعب عليها كل حال يجرها إلى الإستفزاز بطارق التسخط، ويورها حوض شتات جميعها، ويغلب حضورها.

وإنتصر لمعاشرة الآدميين على قدمى الصبر والتحمل، فالبدن

(٢) رواه البخارى، ومسلم، عن أبى هريرة وكعب أبن مالك رضي الله عنهما، بروايات متقاربة.

له رأس واحد، فلا تجمع رأيك على أن تجعل كل عضو فى البدن رأساً، وقل لمن لم يتحقق بنسبة خلقه فى حكم الرأسية: كن ذنباً ولا تكن رأساً، فإن الضربه أول ما تقع فى الرأس، وارفع همة من تنزل بخموله عن حق خلقه، كأن خلق يداً فوقف رجْلاً، أو خلق رجلاً فاندلس وركاً.

ولا تر لك الخيرية على غيرك بعلمك، بعملك، فإن ذلك من التجرى على الموجد جلَّت عظمتهُ، قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»(١).

والعتبى التى أشار إليها رسول الله ﷺ هى: أن يطلب العبد رضاء ربه بالتوبة، والرجوع إليه، وهو أكرم الأكرمين.

(١) صحيح: رواه البخارى ومسلم.

أخلاق يجب أن يتخلق بها أهل الطريق إلى الله

● ولتكن أيها الأخ الصالح: كثير الأدب مع خلق الله تعالى كثير الرحمة والشفقة على والديك ـ أمك وأبيك ـ وصولاً لرحمك، متودداً لجيرانك، ذا حنوٍّ عليهم، رؤوفاً بالمؤمنين، متحققاً بشأنهم بأخلاق نبيك ـ ﷺ ـ فهو: ﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾(١) وكذلك: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾(٢).

وإذا أدخل عهد الله فى آلك من ليس منهم، فارحمه كرحمتك لآلك، عملاً بحال معلمك الذى زرع الخير فى قلوب المسلمين ﷺ.

قال أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما»(٣)

ولتكن باراً بجارك، فقد قال المصطفى عليه وعلى آله أكمل صلوات الله وأجل تسليماته: «مازال جبريل يوصنى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(٤).

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨. (٢)سورة الأحزاب: الآية ٦.
(٣) رواه البيهقى فى دلائل النبوة، وهو صحيح الإسناد.
(٤) رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها، **مرفوعا.**

● ولتعرف لوليٍّ الله حقه بالكف عنه فيما زاد عن حق الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما أفترضته عليه، وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن إستعاذنى لأعيذنه، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته»[1].

فخذ من هذا الحديث القدسى العلم بالولى، واعرف حقه، ولا تحطَّ من قدره، ولا تغل به، وابتغ الخير بسببه، واتَّبعه، وأنب إلى الله كما أناب، وأكثر من قراءة القرآن وقت إنشقاق الفجر، فإن فى ذلك الوقت معنى من معانى حال النبى ﷺ، ورضى الله عن ابن رواحة الصاحبى الجليل فإنه قال يمدح سيد الممدوحين نبينا الآمين صلى عليه رب العالمين:

وفينا رسول الله يَتْلُو كتابَهُ
إذا إنْشَقَّ معروفٌ منَ الفَجْرِ سَاطعُ

(١) رواه البخارى، عن أبى هريرة رضى الله عنه.

أرانا الهُدى بَعْدَ العَمَى فَقُلُوبُنا
به موقناتٌ أنَّ ما قال: وَاقِعُ
يَبيتُ يُجافى جَنْبُهُ عَنْ فراشه
إذا إستثْقَلَتْ بالمُشْرِكنَ المَضاجِعُ[1]

● واركع ركعتى الفجر، فقد قالت عائشة الصديقة رضى الله عنها: «لم يكن النبى ﷺ على شئ من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر»[2].

واحرص على فرائض الله، وأدِّ حق نبيك الكريم بالمحافظة على سننه، وعظم ما عَظَّمَ الله تعالى، وكن شديدا فى الله، قال الله تعالى:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[3].

● وانفض يديك من كل عارض دون الحق، ولا تمل إلى كل معوج، وأسلك الطريق المستقيم، وكل طريق رأيت فيه العويصاء التى تنكرها فدعه، وإنهض الطريق الذى تعرفه، وحكِّم فى كل قول وعمل: شريعة نبيك السيد العظيم القدر ﷺ.

(١) رواه البخارى، فى الأدب، باب هجاء المشركين. وفى التهجد، باب فضل من تعار من الليل وقد جاء فى البخارى كلمة أتانا بدلا من وفينا.
(٢) حديث صحيح: رواه البخارى ومسلم والنسائى.
(٣) سورة الفتح : الآية ٢٩.

وإذا قلت فلا تقل إلا خيراً، وإذا فعلت فلا تفعل إلا حقاً، وإذا صحبت فلا تصحب إلا خيراً، وإذا قمت وقعدت فلا تكن إلا نزيها نظيفاً.

● ولا تعبد الله على حرف ! أعبد ربك ولا تشرك به شيئاً، واجعل محجتك قول نبيك الذى هو أولى لك من نفسك، وإذا إبتليت فامدد يد الرجاء إلى بارئك، وإصبر لحكم ربك، ولا تيأس من روحه فـ ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[1]. وانتظر فرج الله، فقد قال رسول الله ﷺ «انتظار أمتى فرج الله عبادة»[2].

وقال عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام: « إن لله فى كل طرفة عين مائة ألف فرج قريب»[3].

وتعرض لنفحات ربك من كل طرفة وعظِّم الأشياء بمُظهرها سبحانه، ما أعظم أسرار الله المطوية فى عوالم خلقه؟ ألفَ الأمم تعظيم عظمائهم! وألِفَ كل أمة التشوف إلى حال عظماء الأمة الأخرى، فإذا رأوهم ـ وإن كانوا فوق عظمائهم أولى قوة، وأولى بأس شديد ـ حطت بهم أعينهم عن مراتبهم، ورأوهم دون ما هم، فتراهم يستعظمون ما لهم، ويحطون على عادتهم، يتعجبون من كثرتهم، ويسخرون منهم للباسهم! وما ذلك إلا

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٢) رواه الإمام السيوطى فى الأربعين الصغرى، وسنده صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة.

لقصر النظر عن إستجماع شؤون الناس، وإستكناه حكم حالهم، وحكمة عاداتهم، وشأن بلادهم وما هم عليه، ولتمكن حال عظماء تلك الأمة وشأنها من قلوب الأمة، ولإنطباع النفوس على تلك العادات والمشارب.

والأمر كذلك فى العقائد والمذاهب، والعاقل الحكيم لا يرى هذا ولا يقول به، وإنما يستكنه الحق فيقف عنده، يُحسِّن ما حسنه الشرع لإستجماعه أشرف المحاسن، ويُقَبِّح ما قبحه الشرع لنزاهته عن القبائح، ويضع كل شئ بميزان الحكمة، فإن رجح إسترجحة، وإن خف إستخفه، وهو فى الأمرين على منصة الأدب، لا يهتك ستر الله المنسدل على مخلوقاته، ويقول الحق، ولا يخاف فى الله لومة لائم.

● فكن أنت ذلك الرجل الكريم الحكيم، وإذا مسك من شيطانك نزغ، فقاد طبعك إلى التجاوز والتعالى، أو إلى البغى والعناد والمكابرة، أو مد لك فى خاطرك بساط الحسد فظلمت، وأوقعت الأشياء فى غير مواقعها، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، واذكر ربك، وبذكره أذكر الموت، فهو باب المصير إليه، والرجوع إلى حضرة أمره، والسبيل إلى الوقوف بين يديه، وتذكر هنالك سؤاله لك عن كل شئ، ولا تنس مضمون سر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1] وطف بقلبك فى كل حضرة، وخذ ما صفا، ودع الكدر، وليكن عملك صالحاً

(١) سورة النساء: الآية ١.

ليرفع إليه سبحانه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[1].

واجمع الناس عليه، لا عليك! خذهم إليه، لا إليك، وهو لهادى إلى سواء السبيل.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٠.

التوكل على الله من صفات أهل الطريق إلى الله

قف - هى دار عبرة - أيها الولد إعتبر بها، وسر بكل ما فيها إلى الله، وإياك أن يشغلك بارز منها عن ربك، وإياك والبطالة، ما أقبح الصوفى البطال! يدعى الزهد وعينه فى المال، ويده ممدودة للسؤال![1]

● ليس من الهمة أن يرى الرجل نفسه آخذاً، بل الهمة أن يرى الرجل نفسه معطياً، سِفْل اليد أصعب من قطعها، احترف

(١) فباب الصدق فى التوكل على الله عز وجل من أجل الأبواب على الإطلاق، فيه يتبين إيمان العبد من عدمه، ومما يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿ فليتوكل المؤمنين ﴾ آل عمرن ١٢٢، وقال تعالى: ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ المائدة: ٢٣، وقال تعالى: ﴿ إن لله يحب المتوكلين ﴾آل عمران: ١٥٩، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يتطيرون ولا يكتون ولا يترقون، وعلى ربهم يتوكلون» حديث متفق عليه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - عن النبى ﷺ: « لو توكلتم على الله حق توكل: لرزقكم الله كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا ». رواه الترمزى وقال حسن.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « العز والغنى: يحولان فى طلب التوكل، فإذا أصاباه أوطنا ».

فالتوكل - فى نفسه وموجوده فى القلب - هو التصديق لله عز وجل، والاعتماد عليه، والسكون إليه، والطمأنينة إليه فى كل ما ضمن، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق وكل أمر تكفل الله به، والعلم بأن كل ما أحتاج إليه العبد من أمر الدنيا والأخرة، فالله مالكه والقائم به، لا يوصله إليه غيره، ولا يمنعه غيره، مع خروج الرغبة والرهبة والخوف من القلب ممن سوى الله تعالى، والثقة به والعلم الخالص. واليقين الثابت: أن يد الله المبسوطة إليه، الموفيه له فى كل ما طلب، فلا يصل إليه معروف إلا من بعد أمره، ولا يناله مكروه إلا من بعد إذنه!

بما تصل إليه قوتك، ويبلغه إمكانك، أدنى حرفة من الأعمال والصنائع ـ فيها لو فقهت ـ أشرف صفة درج عليها أهل الهمم، وهى الترفع عن نوال زيد وعمرو، ركوناً إلى كرم الله سبحانه، قال رسول الله ﷺ: « إن الله يحب أن يرى عبده تعباً فى طلب الحلال »[1].

انسجوا وشْىَ صنعاء وبَزَّ فارس، وخَزَّ إشبيلية بين سوارى أروقتكم بهذه القرية، واجمعوا بين صنائع العرب والفرس والرم، وتصدقوا من كسبكم على إخوانكم حلالاً طيباً، واسوا وكلوا مما رزقكم الله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[2] الطيبات لله، إذا اكتسبت من حلال، وأهلكت فى حلال.

قال سيد أهل الهمم ﷺ: « إن الله يحب المؤمن المحترف»[3].

أكره ما تراه العين: رجل عليه سيما الزاهدين، وهمته همة السائلين! من طأطأ للنوال، ورضى بالسؤال[4]، فهو أخس طبعاً من عَجَزة النساء!

(١) رواه ابن أبى الدنيا، ورواه الديلمى عن على كرم الله وجهه.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٢. (٣) رواه ابن أبى الدنيا
(٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل، وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خروشاً، أو خموشاً، أو كدوحاً فى وجهه» قيل: يا رسول الله! وما يغنيه؟ قال: « خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب » (رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجة رقم ١٨٤٠. وإسناده صحيح).

لا أقول هذا لأنفر القلوب من السائلين، أدُّوا ما عليكم من حقوق الرحمة بخلق الله، والتصدق على الفقراء لوجه الله، هذا ما وجب عليكم، ولا ينزغنكم الشيطان فتشمئز منهم نفوسكم: فتُهينوهم وتروهم بعين الإحتقار! هذا إذن يكون من تسويل إبليس ودسائسه!

ولكن أقول هذا، لأرفع همم إخوانى طلاب الحق عن البطالة، قال ﷺ: « إن الله يكره العبد البطال»[1].

رأيت خالى وسيدى الشيخ منصوراً ـ سح على قبر هطال الرحمة ـ وقد رد هدايا بعض الفقراء، فقلت له فى ذلك؟.

فقال: فيها شئ مجتمع من السؤال، ولو كان عن خالص طريق أبلج لقبلته.

يريد أن ذلك الشئ لو لم يكن مشوه الوجه بالسؤال، وكان من حلال طيب، كنت أقبله، عملاً بالسنة المحمدية، فإنه عليه الصلاة والسلام رد الصدقة، وقبل الهدية.

هذا طريق القوم، بلى إن القوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

(١) رواه ابن أبى الدنيا.

نصيحة الإمام أحمد بمجالسة القوم

● قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله وعطر قبره ـ لولده عبد الله بعد أن صحب العارف أبا حمزة البغدادى الصوفى، طيب الله مضجعه:

يا ولدى! عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العمل، والمراقبة والخشية، والزهد، وعلو الهمة.

رحمه الله ما أكثر إنصافاً! قد وصف القوم بما هم أهله، وهذه الصفات التى يحبها الله تعالى من عباده، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى كريم يحب الكرم، ويحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها»(١).

وقال ﷺ ـ وهو الصادق الأمين ـ: «أزهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس»(٢).

وليس الزهد: أن تختط لك كوة فى الجبل، وتلبس الخشن وتأكل الخشن.

● وإنما الزهد: أن تنفض يديك من الدنيا، فلا ترفعها إلى قلبك ولو ملكتها بحذافيرها! وإن من علامة الزهد قول قول

(١) رواه البيهقى، وقال الحافظ العراقى: رجاله ثقات (إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٥٨).

(٢) رواه ابن ماجه برقم/ ٤١٠٢/ والطبرانى فى معجمه الكبير، والحاكم فى المستدرك: (٤/ ٩٣١٣) وهو حديث حسن.

الحق، لأن كلب الدنيا يخاف على جيفته فيسكت عن قول الحق، ويوافق أهل الباطل! والزاهد بها لايخاف على شئ منها، فيقول الحق، وينصر الله الحق بأهل الحق. ومتى أغضت الأمة على الباطل وتركوه على حاله، فقد نادوا على أنفسهم بالخزى والشتات!

قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت أمتى تهاب الظالم أن تقول: إنك ظالم، فقد تُوُدِّعَ منهم»(١).

وبرواية أمير المؤمنين على رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن تقدس أمة لا يؤخذ فيها للضعيف حقه من القوى غير مُتَعْتَعٍ»(٢) وهل يؤخذ إلا إذا قال قوم الحق وانتصروا له؟ هذه سنة الله فى عباده.

حكيم ضاء قلبه بقبسة نور النبوة، يفعل ما لا يفعل العسكر الجرار: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾(٣) وكلمة تفتق رتقاً، وتحى حقاً، وترفع جدراناً، وتشيد بنياناً، والأمر كذلك.

الجهل ظلمه والعلم نور، وإلى الله تصير الأمور.

إجمعوا ـ أى إخوانى ـ قلوبكم على محبة بعضكم، على

(١) قال فى مجمع الزوائد: ٧/ ٢٧٠: رواه أحمد، والبزار، والطبرانى، عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما، مرفوعاً، ورواه الحاكم فى المستدرك ك(٤/ ٩٦). والحديث صحيح.

(٢) رواه الطبرانى. (٣) سورة النور الآية ٤٠.

أولياء أموركم، إصبروا على أمرائكم، لا تخرجوا على سلطانكم.

قال رسول الله ﷺ: «من كره من أميره شيئا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية»[١].

وبرواية عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «دعانا النبى ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، فى منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً، عندكم من الله فيه برهان»[٢].

هذه أوامر نبيكم الصادق الأمين، حبيب رب العالمين، فيها لكم هدى وبركة، وأمن وأمان، تمسكوا بها ولن تضلوا أبداً.

● عاملوا أهلكم ونساءكم وأولادكم ومواليكم: بالرفق واللين، ولا تغلوا عليهم إلا فيما يؤول إلى دين الله، إحفظوا لهم نظام مروءتهم فإن المروءة من الإيمان، سيروا بأهلكم فى حكم معيشتكم السيرة الوسطى، لا ضيق مضجر، ولا وسع مبطر، قفوا بين الحالين. نحن من الأمة الوسط، اجمعوا أمركم فى معايشكم عن أن تبسطوا الأيادى تنكف بالضيق، اجعلوا على مقايسكم وطائكم وغطاءكم، اخشوشنوا فإن النعم

(١) رواه البخاري، ومسلم، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، مرفوعاً (جامع الأصول: ٤/٦٩).

(٢) رواه البخاري، ومسلم والنسائي، ومالك، وأوله: بايعنا رسول الله ﷺ على.. (جامع الأصول: ١/٢٥٣).

لاتدوم[١] خذوا عن الشره وحب الثوب والمائدة جانباً، إستغنوا عن الكل بالجزء، علموا أولادكم وعيالكم الأدب الدينى، أطيعوا فيهم لوازم المروءة، قيدوا ألسنتكم إلا عن كلام شريف، قيدوا ذهابهم وإيابهم إلا إلى محضر شريف.

● يروى عن على الكرار أمير المؤمنين عليه السلام شعر، منه:

يقاس المرء بالمرء   إذا ما هو ما شاه

وللشئ على الشئ   مقاييس وأشباه

والمرء بقرينه يعرف شأن تمكينه، فقارنوا المهذبين أهل القلوب الطاهرة، والأخلاق الشريفة، لا تنظروا لفقرهم وذلهم ومسكنتهم بنظر الاحتقار، فكم لله سيف مغمد فى قِراب رث خلَقٍ[١].

● إنى أُسرُّ بأربعة أشياء إذا نزلت بأصحابى، وأفرح لهم بها، وأسأل الله تعالى لهم الصبر عليها: الجوع، والعرى، والذلة، والمسكنة، وهذه شعار الفقراء، ولكن كيف هى لو عرفتم جوع فى شبع؟ وعرى فى إكتساء؟ وذلة فى عزة؟ مسكنة فى مكنة؟

جائع، وضيفانه شباع! عار، قُصّاده كساة! ذليل، وأتباعه أعزاء، مسكين، وموالوه مكينون!

(١) ومن شواهده: ما رواه أحمد، وأبو نعيم، عن معاذ رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إياكم والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» (كشف الخفاء: ١/٣١٧).

(٢) أى بالٍ وخرق.

كذلك عمر بن الخطاب الفاروق الجليل، وأمثاله، ﵁.

على المرتضى - ﵁ - جاع بعد أن كنس بيت المال فى الله، مسكين الله فى محرابه، وهو أسد الله يوم الحراب، ذليل لأمر الله، وهو الليث الغالب ﵁ وكرم الله وجهه.

شرف الأكاسرة فى إخلاص الزاهدين، مكنة القياصرة فى مسكنة الخاشعين، وإذا كانت ذلة قلب للرب المعز، وتجرد وجد للموجد الحق، وإجاعة كبد للمشبع الكريم، ومسكنة حال للقدير النصير، الذى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، فما هى إلا طراز حال فيه أنموزج عن شأن النبيين والمرسلين عليهم صلوات رب العالمين، والصبر عليها منحة من منح الله تعالى أسماؤه، وجل ثناؤه.

قال بعضهم: عمر بن عبد العزيز رحمة الله تعالى أزهد من أويس القرنى عليه رضوان الله ورحمته[١]، لأن عمر جائته

(١) هو أويس بن عامر بن جزء القرنى نسبة إلى قرن قبيلة من مراد من اليمن، وهو تابعى وكان مشهوراً بالزهد والتواضع.
أدرك النبى - ﷺ - أخبر به، قيل: إنه قتل بصفين مع الإمام على كرم الله وجهه، ويرى مسلم عن حديث أسيد بن جابر عن عمربن الخطاب فى قصة أويس القرنى، وإخباره ﷺ عنه بأنه خير التابعين وأنه كان به برص فدعا الله فأذهبه عنه، إلا موضعا قدر درهم من جسده، وأنه بار بأمه وأمره لعمر بن الخطاب أن يستغفر له، وقد وجد هذا الرجل فى زمان عمر بن الخطاب على الصفة والنعت الذى ذكره فى الحديث سواء، فيروى بن الأثير فى أسد الغاية عن أسير بن جابر قال: كان عمر بن الخطاب إذا أتى أمداد اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتى عليكم أويس=

فهرب منها وتركها، وأويس لم تأتيه، ولكنه زهد فما طلبها.

اللهم نسألك علماً بك، وإيماناً بما جاء من عندك، وتوكلاً عليك، وانتصاراً لك.

● أى سادة! الطريق إلى الله تعالى عد أنفاس الخلائق، وإنى لم أر أقرب وأوضح، وأيسر وأصلح، وأرجى من طريقى الذل والانكسار، والخضوع والافتقار.

إذا أراد (الله) العبد لأمر هيأه له، وهيأه للأمر الذى أراده له، وما وصل المقربون إلى محل الكشف والمشاهدة: إلا بترك الاختيار، وكثرة التواضع والانكسار، وطاعة الملك الجبار ولقمة الحرام تحجب الدعوة أن تستجاب.

● والفتوة كل الفتوة: الصفح عن عثرات الإخوان، وأن لا يرى الرجل له فضلاً على غيره.

● والتصوف[١]: تهذيب أخلاق، وشرف طباع، وعلو همة،

= بن عامر على أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن إستطعت أن يسغفر لك فافعل» فاستغفر لى، فاستغفر له. فقال له عمر: أين تريد؟ قال الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون فى غيداء الناس أحب إلى. انظر أسد الغابه حـ١ ص ١٧٩

(١) تعددت تعريفات التصوف وذلك لأنه مرتبط بالذوق وبالتجربة التى يمر بها كل سالك فلذلك تعددت التعريفات.
فمن التعريفات ما يؤكده الجنيد البغدادى سيد الطائفة فهو يؤكد أن التصوف عمل، وعمل دائب جاد، وحزم مع النفس، وتغيير لما بها من خضوع للعادة واسترسال مع المألوفات: « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن بالرجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات». =

فمن حسنت أخلاقه، وشرفت طباعه، وعلت همته، فهو الصوفى، وإلا فلا.

والإخوان أغصان تضمهم شجرة، وهى المرشد، ومن شذ عنهم فقد إنقطع!

= وهو نفسه يشرحه فى تعريف آخر يبرز الجانب العملى، على نحو أكثر تفصيلاً، لكنه يشارف الجانب الروحى أيضاً، ويتطلع إلى ما وراء التخلى والتحلى، « التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، وعمل ما هو خير إلى الأبد، والنصح الخالص لجميع الأمة، والإخلاص من مراعاة الله، واتباع النبى ﷺ فى الشريعة».

ويروى الهجويرى عن الجنيد قوله: «التصوف مبنى على ثمان خصال السخاء والرضا والصبر والإشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر» ثم يعقب على ذلك بأن «بناء التصوف على ثمانية خصال إقتداء بثمانية أنبياء: فيقتدى فى السخاء بإبراهيم لأنه بلغ أن ضحى بولده، وفى الرضا بإسحق لأنه رضى بأمر الله وقبل بترك روحه العزيزة، وفى الصبر بأيوب لأنه صبر فى بلائه بالدود، وفى الإشارة بزكريا لأن الله تعالى قال: «إذ نادى ربه نداء خفياً» وفى الغربة بيحيى لأنه كان غريباً فى وطنه وغريباً بين أهله، وفى السياحة بعيسى لأنه كان فى سياحته من التجرد بحيث لم يكن يملك إلا وعاء ومشطاً، وحين رأى شخصاً يشرب بحفنيه ألقى الوعاء، وحين رأى شخصاً يخلل شعره بأصابعه رمى المشط، وفى لبس الصوف بموسى لأن ملابسه كلها كانت صوفاً، وفى الفقر بمحمد ﷺ».

- ويروى الهجويرى عن محمد بن أحمد المقرئ - رحمه الله - «التصوف استقامة الأحوال مع الحق» ويشرحه بقوله: «أى أن الأحوال لا تحول سر الصوفى عن الاستقامة فى الحال، ولا تلقى به فى الاعوجاج، لأن من يكون قلبه صيداً لمحول الأحوال، فإن الأحوال لا تنحرف به درجة الاستقامة، ولا تمنعه عن الحق تعالى».

- وينسب للتسترى - رحمه الله - أنه قال: «الصوفى من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر». وهو ما يشير إلى ثمرة المجاهدة المخلصة.

● إذا إجتمعتم على الطعام تناصفوا، وتواسوا فيما بينكم، ولا يقصد أحدكم أن يغلب الأخر فإن الغالب فى ذلك مغلوب، ! وإن المؤثر ممدوح مثاب محبوب، وإن الأكل دليل على شرف الهمة وعكسه، وأخو الشره لا يكون شريف الهمة، وإنما يكون حريص نهماً، فعليه أن لا يُظهر عيبه فى كل مكان ما يظهر منه للناس، وأن يطهر ساحة قلبه من كل عيب له لا يطلع عليه إلا الله، ومن لم يكن له داعية غيره. «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه فى كتاب الإيمان (باب: سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان) ورواه مسلم عن عمر وأبى هريرة رضي الله عنهما، فى كتاب (الإيمان، والإسلام، الإحسان) وكلاهما بلفظ: « أن تعبد الله . . » إلخ. وأما لفظ: « أعبد الله» كما هو هنا: فرواه ابن أبى الدنيا فى الصمت، والطبرانى، ورجاله ثقات. وقال الحافظ العراقى: وفيه إنقطاع. (إحياء علوم الدين: ٣/ ١١٠)

خصال التصوف

● للتصوف خصال محمودة، أولها تجريد التوحيد، ثم الإيثار، ثم إيثار الإيثار، ثم حسن العشرة، ثم فهم السماع، ثم ترك الأخبار، ثم سرعة الوجد، ثم الكشف عن الخواطر، ثم سرعة الصمت إلا فيما يؤول إلى الله، ثم ترك رؤيا الإكتساب ثم تحريم إدخار ما يكتسبه.

وعلامة الفقير[1] الصادق فى جميع الحركات: التقليل من المباحات، والصمم عن كثير من المسموعات، وأن لا يطلب المعدوم حتى يبذل المجهود والموجود وانقطاع الحيلة، حتى لا يرى فى أحواله وشدته ورخائه وتقلبه: غير خلقه ومكونه، وإن الفقير نظر إلى ما يلبس، إلتبس عليه أمره! ومتى ما رأى الخلق من دونه ظهرت عيوبه! الفقير ابن وقته، يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر، يودع لكل ساعة ما يصلح لها، ولا يضيع شيئاً. وعليه أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يطلقه فى غير حقه، فإذا نطق ينطق بعلم، وإذا صمت يصمت بحلم، ولا يعجل بالجواب، ولا يهجم على الخطاب، وإذا رأى من هو أعلم منه: أنصت لإستماع الفائدة، ويحذر من الخطأ، ويحترس من الغلط والزلل، ولا يتكلم فيما لا يعلم، ولا يناظر فيما لا يفهم.

(٢) أى: الصوفى.

● وأول ما ينبغى للإنسان أن يأمر نفسه بالمعروف، فإن ائتمرت يأمر الناس، وينهى نفسه عن المنكر، فإن انتهت ينهى الناس، وإلا فيصير هدفاً لسهام قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾[1].

ولقوله تعالى: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ** ﴾[2].

● إذا طابت أنفسكم للحكمة، فارفعوا بها خواطركم إلى حكمة نبيكم ﷺ، وإلى كلام ربكم جل وعلا، فإن طابت خواطركم بحكمة النبى عليه الصلاة والسلام، وتنورت بكلام الله فهى على هدى، وإن لم تطب بالحكمة النبوية وتتشرف بنور القرآن، فهى ضجيعة الشيطان! فتوبوا، واستغفروا، وأقلعوا بالإنابة إلى ربكم، فرب علم ثمرته جهل، ورب جهل ثمرته علم. كل علم أنتج دعوى التفوق به فثمرته جهل بحت!

الله تعالى يقول: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[3].

يمكن أن تكون أعلم من أخيك بنحوك وهو أعلم منك بصبره، أعلم منه بفقهك وهو أعلم منك بعلمه، أعلم منه بفلسفتك، وهو أعلم منك بطريق حكمته، أعلم منك بخلافك،

(١) سورة الصف: الآية٢-٣.
(٢) سورة البقرة: الآية٤٤.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

وهو أعلم منك بحقيقته أعلم منه بلغتك، وهو أعلم منك بخلقه، أعلم منه بتفسيرك، وهو أعلم منك بذوقه، أعلم منه بحديثك، وهو أعلم منك بصدقه، أعلم منه ببيانك، وهو أعلم منك بحاله، أعلم منه بشعرك، وهو أعلم منك بإخلاصه.

الفنون النوعية فى العصابة الإنسانية لا تتناهى، والفنون العلمية متناهية بالنسبة للمدون، فمتى قابلت المدون بالنوعى، رأيت أنك لو بلغت الغاية فى كل مدون، زنت قاصر فيما لا يحصى من النوعى. هذا نوع الإنسان، قال فيه ربك سبحانه: ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] جاء فى الخبر عن سيد البشر، «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[2].

● توسع إذا حققت، وحقق إذا دققت، ولا تكن فى سيرك إلى ربك كحامل الرحى غايته مبتداه،! اقطع عقبات الوجود بعلمك، بفهمك، بعقلك، بنظرك، باستدلالك.

سفّه قوم طريق الاعتبار لغلبة الطبع! فما نجحوا بظلمات الهوى وكثافة الضلال، وسفهوا أهل النظر الصحيح جهلاً منهم! أولئك: ﴿ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة العلق: الآية٥.

(٢) هو جزء من حديث، أوله: «نضر الله امرءا سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» (رواه الترمزى، وأبو داود، وهو حديث صحيح، ورواه أيضاً أحمد، وابن ماجه، والدارمى، كما فى جامع الأصول: ٨/ ١٨).

(٣) سورة البقرة: الآية١٣.

● بادر - أى أخى - إلى ما لا بد له، وترفع إلى فضل تذكر به فى محافل قومك، ويثنى عليك به فى الملأ الأعلى عند ربك، لتصير حميد السيرة فى الملأين، ممدوح الخصال فى العالمين.

● الرجل من تظهر أثاره بعده، اجهد أن تبقى الأثر بعد العين، واجعله طيباً مرضياً، الحق مكور تحت الضلوع، توقن به أنفس الحاسدين، وتعترف به قلوب الجاحدين، وحسبك أن تقر لحقك أنفس حسادك ولو انعقدت عن النطق به ألسنتهم، وأن تعرف بأن لك قوب جاحديك ولو صرفهم عن التفوه به جحدهم.

هذا شرف الحق فليفتخر المحق، وليبتهج أهل الحق.

● رأيت رسول الله ﷺ ليلة عيد الفطر وقد ملأ نوره عوالم الله تعالى كلها، فقلت: الصلاة والسلام عليك يا روح العوالم، يا رسول الله!

فقال ﷺ: وعليك السلام.

فقلت: يا حبيبى، علمنى أشرف العلوم.

فقال: «هو الوقوف عند الحق: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾[1] وحسبك».

اللهم صلى وسلم وبارك على عبدك ونبيك ورسولك، سيد أهل الحق، الناصر الحق بالحق، محمد أكرم عبيدك، وأشرف عبادك، وعلى أله وصحبه أجمعين. اللهم أرشدنا بالحق،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

وأجعلنا ببركته من خاصة أهل الحق: ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** ﴾[١]. يا أهل دوائر الحق فى حضرات الحق! قولوا الحق، أين كنتم، وحيث وجدتم، امحقوا الباطل بحقكم، أفتحوا مقتل الآدمين بميل الحق، لينتبهوا من سنة غفلاتهم بكم: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ** ﴾[٢]

والنبى ﷺ يقول: «لأن يهدى الله بك رجل واحداً خيراً لك من حمر النعم»[٣].

يا فقيه، لا تصر مغلوباً لفقهك، فيغلب علمك عقلك، فتعلوا وتطيش وتحرّف، اجعلك وفقهك وكل ما بلغه علمك للحق، صر منصفاً لتنفع الناس وتنفع نفسك، طهر قلبك بذكر ربك، إملأ بالخوف منه تعالى ليصلح.

إن القلب إذا صلح: صار مهبط الأسرار، والأنوار والملائكة، وإذا فسد: صار مهبط الظلم والشياطين، وإذا صلح: أخبرك عما فى أمامك وورائك، ونبهك عن أمور لم تكن لتعلمها بشئ دونه، وإذا فسدت: حدّثك بأباطيل يغيب معها الرشد، وينتفى السعد، فياطوبى لمن أصلح الله قلبه.

أشرك الخلق كلهم فى منفعتك، فإن أحب الخلق إلى الله أنفعهم للخلق[٤]، وصر مادة نفع، فكل من لم ينفع فى الدنيا، لم ينفع فى الأخرة!

● صحح اليقين بإشارات الصالحين، وزكِّ نفسك بفقهك، فإن النفس على ثلاثة أضرب: نفس أمارة بالسوء: وهى نفس الجاهلين والعاصين. ونفس لوامة: وهى نفس المؤمن، تسره حسنته وتسوءه سيئته. ونفس مطمئنة: وهى نفس الموقنين العارفين المنقطعين إليه، فإن من عرف الله حق معرفته، قطعه إليه بكليته.

(١) سورة الكهف: الآية ١٠. (٢) سورة فصلت: الآية ٣٣.

(٣) رواه البخارى، ومسلم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، مرفوعاً. (جامع الأصول: ٨/ ٦٥٤).

(٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» (رواه الطبرى، وغيره، وكشف الخفاء: ١/ ٣٨٠).

مجالس الصوفية وما فيها من أحزان

قل لأرباب الغفلة: مجالسنا مجالس الأحزان والمآتم، لأن الفقير لا يزال متأسفاً على ما فاته من الفضائل، يرجوا الحق ويخافه، فإن سمع شيئاً يشير إلى المفاصلة خاف، وإن سمع شيئاً يشير إلى المواصلة رجا، وإن دعى أجاب، وإن سمع رداً بكا وهاب، تسير به الفطنة فى هذه المجالس لاقتناص شوارد الحكمة، حتى يصير من أهلها، قال الله تعالى: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾[١].

● أفيضوا نفعكم الله على الخلق كلهم، فإن المؤمن كله: بركة، ورحمة، ونفع، أينما كان، تعاونوا على مصالح دينكم ودنياكم، يد الله مع الجماعة، قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ﴾[٢] وإياكم والتعاون على ظلم الخلق وشهوات النفوس، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾[٣].

شرف الأمة بالتعاون على مصالحة الدنيا والدين.

التجربة السارية بحكم الوضع الأصلى فى النوع الأدمى تقول: هلك المتفرقون! اعرفوا حق العصائب الزكية فى الأمة، حطّهم الزمان أو رفعهم، أضعفهم أو أقواهم، لذوى البيوتات فى قلوب العامة ميل أصلى تهزها بحال ما يصل إليها.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩. (٢، ٣) سورة المائدة: الآية ٢.

● لا تهدموا شرفات بيوت مجدكم بخسة الطباع، وسوء الحال! فإن أول بان للمجد رتب عليكم حقوقاً: أعزها حفظ مجده من بعده.

● لا تقصر هممكم عن أن يتصدر كل واحد منكم فـ... مجداً ثانياً فوق المجد الأول، هذا سيد أهل المجد، وأمجدهم وأعظمهم عند الله والناس، مولانا ووسيلتنا إلى ربنا، سيدنا محمد رسول الهدى ﷺ، بنى للمسلمين بيت مجد إلهى - دينى ودنيوى - جمع بين شرفى المادة والمعنى، ووفق بين عزمى الأخرة والأولى، فانظر كيف تخلفوه فى حفظ مجد هذا الدين المتين، والكتاب المبين، إبذلوا لإعلاء كلمة مجده الربانى المحمدى: الأموال والأنفس، قفوا عند حده، ولا تنحطوا عن هذه الرتبة السعيدة، فإن الإنحطاط عنها مخالفة، والله تعالى يقول: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[١].

● إذا رأيتم المنتصر لنبيه فانصروه، وأعزوا كلمته، فإن فى ذلك من النفع فى دينكم ودنياكم ما يقصر عنه الواصف، ويكل عنه لسان المعبر.

ما أحط همة من عارض رجلاً يسعى لإصلاح شأن الدين منتصراً للنبى الأمين؟! أفٍّ له، لا عقل له، قامت هذه الحجة

(١) سورة النور: الآية ٦٣.

على كل آدمى، ووجب عليه الإنتصار لكلمة سيدنا محمد ﷺ، إذ لو فقه: علم أنه هو الذى شاد منار العدل، وأوضح المحجة، وأقام الحجة، **وأوقع الطمأنينة فى القلوب**، وكف بشرعه الكريم أيدى الناس عن الناس، ومهّد بنيان الأمن والإيمان[١]، وقاتل لله **على كلمة الله**، ليذيع سر عدل الله فى ملك الله، وليفزع حكم **أمان الله** فى خلق الله. وهو الذى ساوى بشرعة بين الأمير والمأمور، والقوى والضعيف، والغنى والفقير، والصغير والكبير، والشريف والمشروف، وكلهم عنده فى الله سواء[٢].

وهو الذى هدم **قواعد البغى، ومحق** أساس الجور، وبدد أركان الظلم، **وبسط بساط الراحة والبركة**، وصان الحق وحمى أهله، وأقعد الناس **على صعيد واحد**، وأرتعهم فى بحبوحة الأمان من طوارق وعثاء **النفوس الباغية**، والطباع المتسلطة العادية، ودلَّ على الله، وأرشد **إلى الله**، وهذَّب الأخلاق، وذكر الله، وربط القلوب بحبل الله، **وعقدها على** محبة الله،

(١) حين قال ﷺ فى خطبة حجة الوداع: «..أيها الناس! اسمعوا منى ابين لكم، فإنى لأدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا، أيها الناس! إن دمائكم وأموالكم حرام عليكم، رلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد..»

(٢) قال ﷺ فى خطبة الوداع: «..أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى..»

وفتك وأحسن، وقطع ووصل، وكل فعاله لله، إعزازاً لدين الله وإنقاذاً لخلق الله من وهدة العيوب القاطعة عن الله، فهو أمين الله على خلق الله فى بلاد الله إلى أن يحشر الخلق إلى الله، والأمر يومئذ لله، فمن أراد الله به خيراً فقّه فى الدين، ودله على هذا الطريق الأمين، فهجر المكابدة والعناد، وتمسك بحبل الهدى والسداد، وأخذ كلمة الحق باب، فدخل بها منها إلى حضرة أمان الله، مؤمناً بالله، وبكتاب الله، وبكل ما جاء من **عند الله إلى سيدنا محمد** رسول الله ﷺ.

أى شريعة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام - وهم إخوانه - جاءت بمثل شرعته؟ وأى طريقة للمرسلين - وهم عياله - وفت بمثل طريقته؟ امتازهم الله على الناس فأعزهم بالنبوة والرسالة، وامتازه الله على جميعهم فأيدة الله مع النبوة والرسالة بالحكمة والبيان، وعلو الهمة، وشدة العزم، قيل له: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ**﴾(١) علماً أزلياً بأن حكم قابلية ذاته يقوم بصبرهم كلهم، فالعارف من كان عاقلاً، والعاقل من كان حكيماً، والحكيم من كان مسلماً، وإلا فالعارف إذا لم يكن عاقلا فهو موسوس، والعاقل إذا لم يكن حكيماً فهو مخلط، والحكيم إذا لم يكن مسلما فهو واهم.

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

الإسلام روح الحكمة: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾(١)

أتى الإسلام بالبرهان القاطع، والحكم الصادع، فعقد العقول على الحق بالحق، وأوقفها أن تجمع شأنها على ما لا حقيقة له من قول وعمل، يحيط العقل، ولكن هات العقل الكامل وأحط به الإسلام، وخذه على مفكرتك، وتدبره بعد بعين فقهك وبصيرتك: تجده نوراً فى قلبك، وحالاً فى عزمك، وبركة فى سرك، وعصمة فى أمرك، وبياناً فى لسانك، وشرفاً فى صفاتك، وعزاً فى طورك، ومجداً فى سلوكك، وزيادة فى نخوتك، وحصناً فى معيشتك، وركناً فى همتك، وأماناً فى آخرتك، وربحاً فى دنياك. وإذا لم يفقه عقلك من الإسلام - بعد أن يعمل الإحاطة به - هذه الأسرار الباهرة، فاتّهم عقلك، فإنه ما أحاط به ولا فهم فقهه، ولا وصل إلى سره!

قامت لربى به الحجة: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾(٢) أخذت به قابليات الطباع حظوظاً فى دائرة لا تعد، والحكمة لا تنحرف عن الصواب: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا**﴾(٣). صفت مناهله، وطابت مشاربه.

عجباً للجاهل يكتسى بكسوة العياق، فيرى الآخر مكتسياً بكسوة التجار فيسقط من عينه، وذاك يرى الاخر مكتسياً بكسوة

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٩.
(٢) سورة الحج: الآية ٧٨. (٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

الجند فيسقط من عينه، وذاك يرى الآخر مكتسياً بكسوة الفقراء فيسقط من عينه! وهلم جراً.

يا من عقل عقله بعاقل الكساوى المجردة، خذ الحكمة أين وجدتها، ولا تنظر إلى مصدرها، انطمس عن المصدر، وفيها المطلوب، ولا تُتبع الحبل الدلو، وأوقف الأمور عند [illegible] نظرك حتى يرى الحِكَم، وينصرف عن مصادرها وموارِدها.

كن عالماً بما لك وما عليك، وأرجع نظرك إليك تفكر بعوالم الله تعالى، عالم الماء، فى كل جرعة منه من العوالم العجائب! عالم الهواء، فى كل شمة منه من العوالم الغرائب!

نشر البارى المقيم أسرار ربوبيته الباهرة وعظمته القاهرة، وعجائب سلطنته القادرة فى كل شئ وقال لك: اعتبر أيها الإنسان بنص: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾[١] فإن أدركت حكم العبرة فى الفكرة، ووصلت إلى سرها المطوى، وعالمها المخفى، ووقفت عن الغفلة، وسرت مع الحذاقة، وجمعت عليك حالك، فقد فزت فوزاً عظيماً: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

﴿ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[٣].

هذا نظام خاص لأهل الاختصاص، يهدى الله به من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢. (٢) سورة الجاثية: الآية ١٩.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٦.

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٩/١٨٠٣٧